

إن من العبادات التي هجرها الكثيرون في هذا الزمان عبادة المتفكر في آيات الله تعالى الكونية التي دعا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية والسلف الصالح.

وهذا الهجر سبب خللا في الوعي الإسلامي، إذ أصبحنا نهتم بأمور هي دون عبادة المتفكر في الاعتبار الشرعي والمفائدة المرجوة، ولعل ما تقوم به هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة من البحوث والمؤتمرات والمندوات والمقالات والتشجيع على البحث في مجالات علمية وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية يساهم في إحياء هذه العبادة العلمية التي هي من أولى العبادات الموصلة إلى الارتقاء بالمستوى الإيماني للمسلم المعاصر.

هل المتفكر عبادة ؟

والجواب بلا شك: نعم. وتعليل ذلك من وجوه:

التعليل الأول: لأن الله تعالى مدح المتفكرين في كتابه بقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[آل عمران: 190، 191].

وختم الله تعالى ثلاث عشرة آية من كتابه بلفظ {تتفكرون} أو {يتفكرون} مما يصور أهمية الأمر. وقال سبحانه: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا)

[الماعرف 184] وقال عز وجل:

[سورة الذاريات 21] أو البصر هنا بمعنى المتفكر.

وقال سبحانه (أَقُلُّ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَدَنِيٌّ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)

[سورة سبأ 46] فأمرهم بالقيام من أجل التهيق للتفكر، فالتفكر هو الموعظة المقصودة هنا بالرغم من وجود مواعظ أخرى.

والتعليل الثاني: لأن الله ذكر في أكثر من 250 آية من القرآن الكريم صوراً مختلفة للكون الذي يحيط بنا في سماواته وأرضه وفي جباله وبحاره وأنهاره وفي مخلوقاته من الجن والإنس والطير والدواب وفي هوائه وسحابه وأمطاره وفي أحداثه وتغييراته وفي حاضره وماضيه وفي مشاهره وتسبيحاته. أتري هذا الكم الكبير من الآيات - التي تفوق الآيات المتحدثة عن الأحكام الفقهية - ذكرت عرضاً أو للقراءة المجردة فحسب؟

والتعليل الثالث: إن الله تعالى ذم معطلي العقول والأفكار، وشن عليهم حملة في آيات عدة من كتابه العزيز فقال سبحانه: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا)

(لَقَمَان 21)، وَقَالُوا عَزْ وَجَلَّ: (أَوَلَمْ يَذْكُرُوا أَنَّا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِنَّا قَالُوا تَرَفُّوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ. قُلْ أُولَٰئِكَ هُم بِأَعْدَىٰ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لَكَاظِرُونَ، فَانْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

[الزخرف 23 - 25].

فجعل تعطيل العقل - التقليد الأعمى - سبباً للتكذيب والكفر ثم سوء العاقبة. والتعليل الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتفكر في آيات الله عز وجل، فيقلب وجهه في السماء، وقد قال مرة لأصحابه:

"إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته"

[البخاري ومسلم]. وكان يأمر أصحابه بالتفكير فيقول: "تفكروا في آلاء الله ولما تفكروا في الله" أخرجه أبو الشيخ في العظمة 1/210

والمطبراني والمبيهيقي في الشعب عن ابن عمر وحسنه البخاري، وله طرق أخرى. وكان أصحابه رضي الله عنهم كذلك، قيل لأبي الدرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت المتفكر.

وكان التابعون كذلك. قال ابن القيم رحمه الله: قال بعض السلف: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة [البخاري ومسلم]. وقال الحسن: إن من أفضل العمل الورع والتفكير.

وقال مولى سعيد بن المسيب: ما رأيت أحسن مما يصنع هؤلاء، قال: وما يصنعون؟ قال: يصلي أحدهم الظهر ثم لا يزال صافاً رجليه حتى يصلي العصر، قال: ويحك! أما والله ما هي العبادة؛ إنما العبادة المتفكر في أمر الله، والكف عن محارم الله أخرجه أبو الشيخ في العظمة 1/210 والمطبراني، والمبيهيقي في الشعب عن ابن عمر وحسنه البخاري، وله طرق أخرى.

فوائد المتفكر:

للتفكر الشرعي الذي أمر الله به فوائد عدة، فمن فوائده:

ضوابط التفكير:

ينبغي ألا يصل المتفكر إلى حد الخروج عما لم يحط الإنسان بعلمه، أو الخروج عما ينبغي تحته عمل، أو تصور أمور لا يمكن تصورها لأنها لا تخضع لمقاييسنا كالمقبر وما فيه والآخره ما فيها والملا الأعلى وما يخصه، فإن ذلك قد يؤدي إلى الوسوسة والشك، وهذا ما حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه في قوله: "تفكروا في آلاء الله ولما تفكروا في الله".

وقال عليه السلام: "إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق السموات؟ فيقول: الله؛ فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله؛ فيقول: من خلق الله؟ فإذا أحس أحدكم من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله ورسوله".

[أخرجه أبو الشيخ في العظمة 1/303 والإمام أحمد في المزهة بسند صحيح].

وإذا كنا في حياتنا لا نفهم أشياء كثيرة نعايشها كالروح، والحواس وحدودها، والعقل وماهيته، والمشاعر والنفسيات، وكثيرا مما يحتويه الجسم من وظائف وأعضاء دقيقة، وبعض مراحل التخلق الجنيني، والرسالة النبوية وطبيعتها، والتخاطب عن بعد، والأقدار الإلهية، والرؤيا والأحلام.. وغيرها، فإن هذا مما يمنعنا من التطاول فوق حدود المعقول، وقد أحسن من قال: قل لمن يفهم عني ما قصر القول فذا شرح يطول

[illegible]

هل تراها أم ترى كيف تجول سنك الروح في جوهرها

المأنفاس هل تحصرها؟ □□□□□□□□□□

لأولما تدرى متى عنك تزولا؟

ك العقل والضمير إذا

3) التخلص من الذنوب، والإقلال منها بقدر المستطاع؛ فإن المعصية تحجب الفكرة.

4) الاجتهاد في الطاعة واستحضار الخشوع والبكاء من خشية الله.

5) ترك ما لا ينبغي من الأقوال والأحوال والأعمال.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه،،،